سر الخلود في العلم والأثر

تأليف

د. طلال بن فواز الحسان

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ / ٢٠٢٥م

حُقُوق الطبع مَحفُوظة للمؤلّف

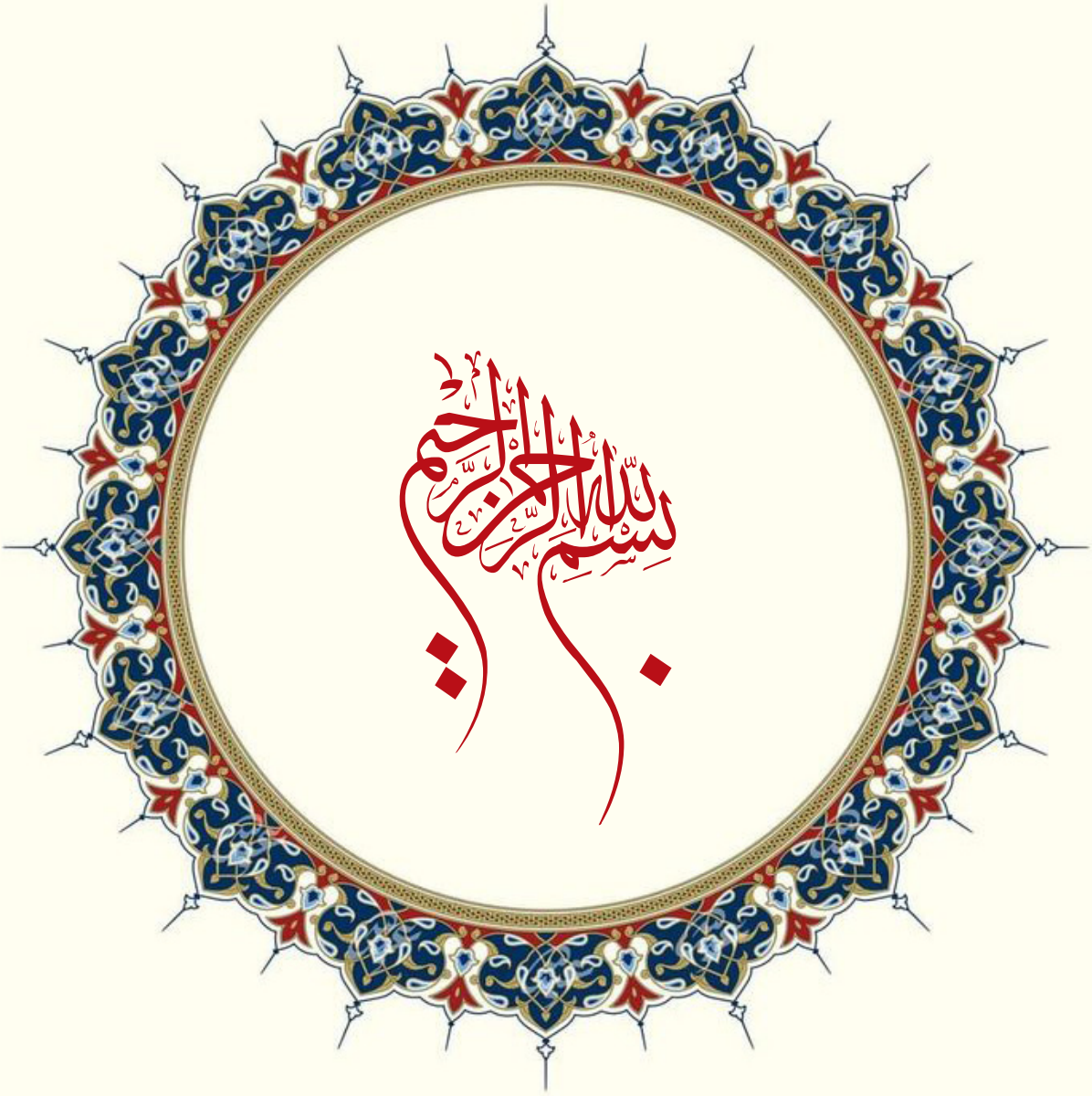
بسم الله الرحمن الرحيم

سر الخلود في العلم والأثر

كـم في تاريخ العلم من رجالٍ لم يخلّدهم إلا كتابٌ واحد، أو رسالةٌ موجزة، ولم يُعرف من علمهم إلا ما خطّوه في سطور قليلة أو ما نسجَوه في أبيات معدودة من الشعر، ومع ذلك نَفَذوا بها إلى أعماق الزمان، واستقروا في وجدان الأمة كأنهم سطورٌ من القدر، كابن آجروم في "الآجرومية"، والبيقوني في "البيقونية".

فالآجروميـة متـنٌ صغيرٌ، لكنّه بـابٌ مبارك، مـا طرقه طالب نحـوٍ؛ إلا انفتـح له، حتى صار هـذا المتن مفتاح هـذا الفن وبابه الأوّل، لا يكاد طالب نحوٍ يدخله إلا من عتبته.

والبيقونية نظم يسـير، لكنّه ألّف بين أشتات المصطلح، حتى غدا نظـم البيقوني أيسـر دليل لطالـب الحديث، مـا قرعَه طالب المصطلح إلا أُدني من سُـدته. فهنيئًا لهما، فقد صاغا من علمهما سـراجًا لا ينطفئ، تناولتـه الأيدي وتوارثته العقول، وسـارت به الركبان من جيل إلى جيل.

ثـم انظر! كم من طالب علمٍ طـوّف في علم القراءات، وجمع العشـر الكبـرى حتى طـال في التجويـد باعـه، ودار في فنّه دوران الشـمس في أفلاكها، ثم إذا نظرت إلى أثره في الناس، لم تجد إلا ظـلًّا خافتًـا، لا ينتفع به سـائر، ولا يأوي إليه طالـب! وما أفاد به نفسًـا، ولا تخرّج به حافظ! كأن علمه ماءٌ في صخرة، لا يُرتَشف، ولا يُسقى منه غيره.

ورأينـا آخر، لم يجاوز "قراءة حفص"، وله فيها إجازة يتيمة، لكن علمـه تفتّق عن نفعٍ عميم، فإذا هو منـارةُ هدى، وعلى يديه تخـرج عشـرات مـن الحفاظ، تشـهد لهـم المحاريـب، وتلهج بذكرهم المجالس، وتباهي بهم المساجد!

وما عليـك إلا أن تمضي ببصرك وراء الأسـماء إلى المعاني، حتى ترى أن في بعض العلماء بركةً تُدهشـك، وتاريخًا لا يُنسـى، وأثـرًا يظـل حيًّا، لأن الله بثَّ في علمه الـروح، فصار كلامه حياة، وتعليمه هدى، ومؤلفاته جنّات من نور.

نعـم، قد يكون في عصره من هو أوسـع علمًـا، وأكثر حفظًا، وأعمـق قراءةً، لكن أثـره في الناس لا يكاد يُذكـر، ونفعه محدودٌ كظلّ وقت الزوال.

فما السرّ في هذا وذاك؟ وأين الفارق بين علمٍ يزدحم به العقل، فلا يُثمر، وعلمٍ يسيرٍ يضيء به الزمان؟

السرّ – يا صاح – هو البركة، نعم، البركة!

تلك النعمة الخفية التي لا تُقاس بالكَمّ، ولا تُوزن بالحروف، ولا تنبثـق مـن الأوراق، ولا تنبع من كثـرة المحفوظ، ولا تدخل في حسـابات البشـر المادية، هي عطاء الله، يمنحها لمن يشاء من عباده.

و بـاب البركة ليـس بابًا أرضيًّا يُفتح بمفتـاح القراءة وحدها، بل هو بابٌ سماوي، يُفتح بالصدق والإخلاص والتقوى وبدوام الافتقار إلى الله.

البركة شيءٌ إلهي، لا تراه العين، ولا تلمسه اليد، لكنه إذا نزل على علمٍ، نَمَا، وإذا حلّ في قليلٍ، كثُر، وإذا مُنح لقولٍ يسير، صار هدايةً ونور .

البركةُ هي تلك القوة اللطيفة التي تسري في العلم فتُحييه، وفي القول فتنشره، وفي العمل فتُثمره.

هي روحُ النفع وسرّ القبول، لا تُشترى من المكتبات، ولا تُنال بكثرة الدورات، ولكنها تُستجلب بدعاءٍ صادق، وقلبٍ طاهر، ونيةٍ تبتغي وجه الله وحده.

فطوبى لمن سأل الله البركة في علمه وتعليمه وتأليفه ودعوته وتربيته، وكان في قلبه من الصدق ما تُستَنزلُ به الرحمة، وما يفتحُ أبواب السماء.

وما أجمل ما نقله صاحب ترتيب المدارك (٦/ ٢٤٥) عن أبي إسحاق الجبنياني – وكان من أهل الورع – قال: «بلغنا عن معلمٍ عفيف، رُئي وهو يطوف بالكعبة، وهو يقول: اللهم أيّما

غلام علمته، فاجعله من عبادك الصالحين». فسمع الله دعاءه، وخرج من بين يديه نحو تسعين من العلماء والصلحاء! وما كان هذا إلا أثر دعوةٍ صادقةٍ حول الكعبة، وبركةً لا تُكتسب بالتعليم وحده، وهو جزاء الإخلاص، وبركة الدعاء، وثمرة الصدق مع الله.

فما أحرى بمن وفّقه الله إلى التعليم أو التأليف أو الإرشاد؛ أن يُلحّ في دعائه سائلًا الله البركة، لا في علمه فقط، بل في طلابه، وفي أثره، وفي كل من يسمع منه، أو يقرأ له.

ذلك أن باب البركة لا يُفتح بكثرة الحواشي، ولا بسعة الاطلاع، وإنما يُفتح بالنية الصادقة، والعمل المخلص، والافتقار الدائم إلى الله.

وإذا ذُكرت البركة، لاح في أفق القلب ذلك الإمام الرباني المبارك: الشيخ عبد الرحمن السعدي، الذي كتب لله، فكتب الله له الخلود، وعلّم لله، فنفع اللهُ به الناس.

لقـد من الله عليـه بفهم في الدين، وصـدقٍ في البيان، وكتبٍ ما طرقها أحد إلا شـعر بنور يغمره من بين يديه ومن خلفه، ولا قرأ فيها طالب إلا شعر بأن العلم يقوده إلى الله، لا إلى جدل، ولا إلى تشقيق، ولا إلى مباهاة أو تكثُّر.

اقرأ كتبه، تجد فيها هدايةً وتربيةً للروح لا تشويش فيها، ونورًا لا غبش فيه، فما كان رحمه الله يملأ دروسه بالحشو، ولا يسرف في المسـائل النادرة، ولا يُغـرق في عرض المُلَـح، كان يعمد إلى مـا ينفع القلـب، ويقرّب إلـى الله، ويزكّـي النفـس، ويهدي إلى الصـراط المسـتقيم، حتـى لتشـعر أن في علمه نـورًا، وفي عبارته بركة، وفي أسلوبه حياة.

ولك أن تعجب، إذا عرفت أن مكتبته لم تزد على مئتي كتاب! لكنها كانت كتبًا مباركة، بارك الله له فيها، فتخرّج بها فقيهًا مفسرًا، وعالمًا محقِّقًا، وأخرج منها علمًا غزيرًا، ودروسًـا جليلة، وتأليفًا لم يزل موردًا للناهلين، وخلّف على إثْرِه مدرسـة علمية، لا تزال آثارها تُروى، ولا تُطوى.

فيـا طالـب العلـم ومُعلِّمه، ويـا من جعلـك الله سـببًا لهداية خلقه: سـل الله البركة، فإنهـا منة الله الكبرى وسـرّ الخلود، وهي التـي تحيـل العلم إلى نور، والقول إلى أثـر، والزمان إلى تاريخ، وكن على يقين أن قليلًا مباركًا خير من كثيرٍ لا نفع فيه، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [سورة القصص: آية ٦٠].

❋❋❋